(٤)

الغزالي.. وثورة ٢٣ يوليو

الغزالي.. وثورة ٢٣ يوليو

كان الغزالي ـ لطول حربه للمَلَكية الفاسدة، والإقطاع المتسلط، والظلم المتجبر ـ شديد الحفاوة بالثورة المصرية، وثورة الجيش في **٢٣** يوليو **١٩٥٢**م عظيم الترحيب بها، والمناصرة لها، وخصوصاً أنها أنجزت بعض ما نادى به مثل تحديد المِلْكيات الكبيرة.

وكذلك كان الإخوان المسلمون جميعاً، فهم الذين ساندوها من أول يوم، وسجدوا لله شكراً بانتصارها، وكانوا حراسها على المنشآت الأجنبية والوطنية التي يخشى أن يفكر خصوم الثورة في الاعتداء عليها، وكانوا يعتبرون الثورة منهم ولهم، وأن من قادتها من كانوا من الإخوان بالفعل، أو من أصدقاء الدعوة عن بعد، ومن تتلمذ على علماء كبار يوالون الإخوان كالعلامة الشيخ الأودن، ولا غرو أن وقفوا جميعاً بجوارها، وحموا ظهرها، وحشدوا قوى الشعب لمساندتها، والرد على المشككين فيها.

ولكن الإخوان سرعان ما انكشف لهم أن عبد الناصر يريد الثورة لنفسه ولحسابه فقط، وأنه يضمر شراً للحركة الإسلامية، ولكل قوة تقف في طريقه، وقد ظهرت دلائل كثيرة تؤكد منذ وقت مبكر ـ وأنا شخصيّاً لمست ذلك ـ وهذا ما جعل الأستاذ الهضيبي يتوجس شراً من عبد الناصر، ولكن الشيخ الغزالي كان حسن الظن به، بناء على ظواهر رآها منه، أو سمعها عنه. ولكن الأيام أثبتت أن فراسة القاضي المتوجس، كانت أصدق من ظن الداعية المتفائل.

ومن ناحية أخرى، كان الغزالي ــ مع فريق من الإخوان القدامى ــ يتخوفون أن يدخل الإخوان مع الثورة في معركة غير متكافئة، معركة مع حكومة عسكرية عاتية تملك الجيش والشرطة والقوات المسلحة، ولا تبالي بما تريق من دماء في سبيل بقائها واستمرار حكمها! وإن من الخير للإسلام ولمصر وللإخوان، أن يكونوا أكثر ليونة مع الثورة وقائدها، الذي لم يتخذ ــ في رأيهم ــ بعد موقفاً صريحاً ضد الإسلام.

ولعبت الوشايات دورها، وغام الجو، والتبس الحق بالباطل، وهبت رياح الفتنة، وحدثت أحداث ما كان ينبغي لها أن تحدث في رحاب الجماعة التي قامت أساساً على الإخاء والحب، وقرت بذلك عين عبد الناصر؛ ليضرب أبناء الدعوة الواحدة بعضهم ببعض، وهو يتفرج عليهم ضاحكاً مسروراً، ونسوا وصية إمامهم حسن البنا، الذي حذرهم من مغبة الفرقة، حين قال لهم يوماً: والله ما أخشى عليكم الإنجليز ولا الإمريكان ولا غيرهم من القوى المعادية في الخارج والداخل، ولكن أخشى عليكم أمرين: أن تعصوا الله فيتخلى عنكم، أو تتفرقوا فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة!

وأدت هذه الفتن إلى فصل الغزالي ونفر معه من الجماعة، وانقسام الصف، وافتراق الكلمة، وهو الأمر الذي مكن لعبد الناصر أن يبطش بالجماعة بطش من لا يخاف خالقاً، ولا يرحم مخلوقاً.

المهم أن الغزالي أدرك بعد ذلك خبث عبد الناصر وسوء طويته، وكيده للإسلام وأمته، وكتب في ذلك بعض الكتب المعبرة عن وجهته هذه، مثل: (كفاح دين) و(قذائف الحق) و(معركة المصحف في العالم الإسلامي) و(حصاد الغرور) و(الإسلام والزحف الأحمر) وغيرها. . . .

وفي كتابه: (كفاح دين) كشف اللثام عن الخطط المبيتة لضرب كل تحرك للإسلام، والاستعانة على ذلك بأبناء المسلمين أنفسهم، وذكر فيه إحصاء

بالمساجد التي هدمها رجال الثورة بدعوى تجميل القاهرة، ولم يبنوا بدائل لها. . . . وسلط الضوء على ما تقوم به أجهزة الإعلام من تخريب للعقول والضمائر.

وكان قد خطر له أن يجعل عنوان هذا الكتاب: (سياسة تمويت الإسلام)، سمعت ذلك منه، ثم رأى العنوان الآخر أخف وطأة، وأدل على روح المقاومة والكفاح الكامنة في طبيعة الإسلام.

وفي كتاب: (قذائف الحق) وضع النقاط على الحروف، وفضح المؤامرات اللئيمة التي دبرت ــ ولا زالت تدبَّر ــ للإسلام عامة، ولدعوة الإخوان خاصة، باعتبارهم القوة المتحركة والمحركة لأمة الإسلام، وسجل في كتابه (الوثيقة الرهيبة) التي أعدها زكريا محيي الدين وشمس بدران ورجالهما، ووقع عليها عبد الناصر للقضاء على الإخوان، وعلى الروافد التي تمدهم من سائر التيارات والقوى الدينية في مصر.

كما أكد أن القومية العربية لا يمكن أن تكون بديلاً عن الإسلام، وأن العرب بدون الإسلام صفر. . . .

وفي هذا الكتاب عرض الغزالي لعبد الناصر في أكثر من موضع، وخصوصاً في فصل (الدعوة الإسلامية والحكام الخونة) فقد ذكره مع (أتاتورك) و(سوكارنو) و(سوهارتو) وغيرهم ممن استخدمتهم القوى المعادية للإسلام من صهيونية وصليبية وشيوعية.

وأنكر على عبد الناصر أن يستخدم الأزهر ــ أكبر جامعة إسلامية ــ ليستقبل الداعر المنحل سوكارنو ويمنحه أعلى شهاداته العلمية وهي (العالمية) الفخرية في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين!!

يقول الشيخ معلقاً:

«والحق أني حائر في فهم جمال عبد الناصر، لقد كنت ــ كما يعلم الناس ــ

من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أن جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بايعاً في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه، وقد كنت قريباً من مشهد مثير وقف فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول:

نحن على العهد وسنستأنف المسيرة!

كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل[1].

وقد وضع كُتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التي كانت تصدر تحت عنوان «اخترنا لك» أمضاها جمال عبد الناصر، وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه.

لا أدري ما حدث بعد ذلك....

إنه تغير رهيب في فكر الرجل ومسيرته، جعله في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

- انضم إلى الهند في خصومتها المرة ضد باكستان المسلملة.

- انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على أرتريا.

- انضم إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحب أحر ترحيب بنيريري الذي يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكي!!

ـ انضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامي للأتراك.

ـ كان أسداً هصوراً في قتال اليمن، وحملاً وديعاً في قتال اليهود، حتى جعل اليهود ـ وهم أحقر مقاتلين في العالم ـ يزعمون أنهم لا يقهرون في حرب!!

---

(١) كان ذلك في شهر فبراير (١٢ منه) سنة ١٩٥٣م.

سـريـع إلـى ابـن العـم يلطـم خـده   وليـس إلـى داعـي النـدى بسـريـع!

ـ وقد ساند (البعث العربي) الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أي تجمع إسـلامـي، واختـرع حكـايـة القـوميـة العـربيـة لتكـون بـديـلاً عـن العقيـدة الإسلامية. . . !!».

على أن الغزالي حتى في أيام تجاوبه مع الثورة وتعاطفه مع اتجاهاتها الأولى، لم يهبط إلى مستوى يجعله لسان إطراء لها، أو أداة طيعة في يديها، فإن طبيعته تأبى ذلك، وتكوينه النفسي والخلقي والعقلي يرفض أن يكون من ذلك النوع من المداحين والمتملقين.

ومواقفه في ذلك معروفة في عهود الرؤساء الثلاثة: عبد الناصر والسادات ومبارك.

ولن ينسى أحد موقفه في (المؤتمر الوطني للقوى الشعبية **١٩٦٢**م) الذي عقده عبد الناصر، وتحدث فيه الغزالي خارج الخط العام للمؤتمر، منادياً بضرورة استقلال الأمة في تشريعها، فلا تكون عالة على غيرها: وهذا هو الاستقلال الحقيقي، وبوجوب تميزها في تقاليدها وأزيائها ـ أزياء الرجال والنساء ـ فلا تكون مجرد نسخة مشوهة للغرب في أفكاره وتقاليده.

وهنا ثارت ثائرة الشيوعيين والمنحلين، وأعداء الإسلام المتسترين بالثورة، والمحتمين بحماها.

وكتب رسام الكاريكاتير الملحد المعروف صلاح جاهين، المحرر بالأهرام ما كتب من سخرية بالشيخ وكلامه وما يرمز إليه من بقاء الإسلام والأزهر والإخوان، وكان صوت الغزالي النادي بالإسلام، وصوت الأستاذ خالد المنادي بالحرية، هما البرهان الحي على أن مصر لم تمت، وأن في الزوايا خبايا، وأن للحق رجالاً.

نشر صلاح جاهين المعروف بانتمائه الشيوعي ١٤ رسماً ساخراً، تحت عنوان (تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية) إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن كلمة الغزالي قلبت موازينهم، وأصابت منهم مقتلاً. وهو فرد، وهم ألوف، معهم الدولة والسلطان، والصحافة والإعلام.

والنـــاس ألــف منهمـــو كـــواحـــد   وواحـــد كـــالألـــف إن أمـــر عنـــا!

ولقد بلغ التبجح بصلاح جاهين أن بعض الناس قالوا له: كيف تهاجم الإسلام ورجاله، وهو دين الدولة الرسمي؟ فقال لهم: إذا كان الإسلام دين الدولة فسأحارب الدولة!

ولقد غاظ الجماهير المسلمة أن يتعرض شيخها وإمامها الغزالي لهذه السخريات من صحفي ملحد أثيم، فخرجت يوم الجمعة (١/٦/١٩٦٢) من الجامع الأزهر في صورة مظاهرة شعبية غاضبة مزمجرة، ضمت عشرات الألوف، وقد اتجهت الجموع الصاخبة إلى دار (الأهرام) القديمة تعلن احتجاجها وسخطها، وقد حاولوا أن يحملوا الشيخ الغزالي معهم على الأعناق، فرفض رفضاً حاسماً.

لقد سخر الشيوعي جاهين من عمامة إمامنا الغزالي، ولكن الشيخ وقف في المؤتمر في اليوم التالي يقول جهرة: إن تحت هذه العمامة رأس مفكر، كان يحارب الظلم والإقطاع، أيام كان أمثال هذا الكاتب قوادين لفاروق!

ولقد سمعته ــ وأنا في قطر ــ يتحدث على الهواء في المؤتمر، يرد على مفتريات الصحافة، التي حرفت كلامه، وعلى الصحافيين الذين قولوه ما لم يقل، حقداً على الإسلام الذي يمثله، وكان مما قاله: إن الذي يهاجمه هؤلاء اليوم باسم التقدمية والحرية، نشر له في عهد الملكية خمسة كتب تهاجم الأوضاع الظالمة الفاسدة، طبعت مثنى وثلاث ورباع، في الوقت الذي كان هؤلاء وأشباههم يسبحون بحمد فاروق وحاشيته!

وخرج الشيخ حفظه الله من المعركة مرفوع الهامة، محفوظ الكرامة، مرعياً بتأييد الله، وحب الشعب.

وبعد رحيل عبد الناصر، وقدوم عهد السادات، وإفراجه عن المعتقلين، وإعلانه بدء سيادة القانون، ومحاربته لمراكز القوى في العهد الناصري، استبشر الشيخ واستبشر الشعب المصري كله، بعد أن انزاح الكابوس الذي جثم على صدره ثمانية عشر عاماً، وتنفس الناس الصعداء، وشرع الكتاب يكتبون عن بعض مساوىء الحكم الناصري ومآسيه، وما ذاقه المعتقلون والسجناء في السجن الحربي وطره والواحات، وغيرها، وظهرت كتب ومقالات كشفت بعض المستور من آثار الطغيان والقهر، وظهرت (المنابر) السياسية التي تطورت بعد إلى أحزاب، بعد أن كان الحزب الواحد هو الذي يحكم مصر، من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي، إلى الاتحاد الاشتراكي.

استراح الشيخ إلى العهد الجديد، وبدأ يمارس نشاطه في ظله، وأبرز ما يمثله: خطبة الجمعة، التي كان الشيخ يلقيها في الجامع الأزهر، التي جذبت إليها المثقفين، ولا سيما الشباب.

وفي عهد وزير الأوقاف الصالح شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود، قال للشيخ الغزالي: إني رأيت عمرو بن العاص رضي الله عنه في الرؤيا يشكو من هجر مسجده، وكان المسجد مهملاً حتى إنه في أجزاء منه أصبح مرتعاً للقمامة من أهل الحي. وطلب الوزير من الشيخ ــ الذي كان يعمل بالوزارة مسؤولاً عن شؤون الدعوة ــ أن يتولى الخطابة بجامع عمرو، حتى يحيا المسجد وينتعش. وسر الشيخ بهذا التكليف، فجامع عمرو هو أول مسجد في مصر، بل هو أول مسجد في إفريقيا كلها.

وبالفعل تجدد المسجد مبنىً ومعنىً وعاونت المحافظة والوزارة في ذلك، وأقبل الناس على خطب الشيخ، حتى بلغ عدد الحاضرين عشرات الألوف، وكون الشيخ بخطبه مدرسة إسلامية متميزة بالاستنارة والاعتدال، وانتشرت أشرطة هذه الخطب في أصقاع مصر، وخارجها.

وفي هذه الخطب، كما في مقالات الشيخ وكتبه، نقد لبعض الأوضاع، وكشف لبعض المخبوء من المكايد والتآمر على الإسلام وأمته. وهذا لم يرض السياسة المصرية. وحُذِّر الشيخ من هذا التوجه الذي يلزمه. ولكن الشيخ استمر في طريقه الذي رسمه لنفسه، ولم يصغ إلى ما نصحه[1] به رئيسه الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء للأوقاف والشؤون الدينية. فكان لا بد أن يوقف هذا النشاط، ويعزل الشيخ عن الخطابة في المسجد، وأن يوضع في القائمة السوداء.

ورأى الشيخ أن الدولة أضحت تضيق به ذرعاً، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر، فرحبت به جامعة أم القرى، ورحب الشيخ بمجاورة المسجد الحرام، تاركاً الميدان في مصر رغماً عنه.

وفي أحد اجتماعات الرئيس السادات، سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة (د. عبد المنعم أبو الفتوح) عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصر، ويحرم جمهوره منه، وتقريب الضعفاء أو المنافقين، وهنا ثارت ثائرة السادات، وهاجم الشيخ الغزالي، واتهمه بأنه من دعاة الفتنة (الطائفية)، وما كان الشيخ يوماً من هؤلاء ولا يكون. ولكنه رجل صريح شجاع، يدق ناقوس الخطر، إذا لاح له ما يهدد الأمة، فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصم أذنه، والخطر من حوله يرى ويسمع.

---

(١) الحقيقة أن الدكتور عبد العزيز كامل تجاوز حدود النصيحة ــ سامحه الله ــ وكذلك حذا حذوه الدكتور محمد البهي، ولكن الشيخ الغزالي ــ كما حدثني ــ لا يحمل لهما إلا كل ودّ ولعن الله التوزير المؤدي إلي غياب الذات. (ع.ع).